الاتجاه الإسلامي في شعر محمد علي السنوسي
دراسة تحليلية فنية

بقلم: د. محمد بن سعد بن حسين

محمد علي السنوسي من الشعراء الذين عرفوا بتجويدهم وإحسانهم فهو مقدم في شعراء العصر الحديث. وفي عام ١٤١٤هـ نوقشت رسالة علمية في قسم الأدب بكلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وسعدت بصحبة معدها محمد بن سليمان القسومي مشرفاً، وكتبت عن السنوسي بحوث ودراسات أخرى فلابد من أن يكون الباحث قد استفاد منها في هذا البحث الذي نستقبل قراءته وهو «الاتجاه الإسلامي في شعر محمد علي السنوسي للباحث مفرح إدريس أحمد سيد، وهو رسالة ماجستير نوقشت في جامعة أم القرى ونشرت عام ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م في ٢٢٤ صفحة من القطع المتوسط بناه بعد المقدمة على تمهيد وأربعة فصول.

ففي التمهيد وهو يحاول تعريف الشعر الإسلامي قال: «ماذا نقصد بالشعر الإسلامي في دراستنا هذه؟

هل نقصد به ذلك الشعر الذي يتردد فيه ذكر الله - سبحانه وتعالى - وتمجيد الرسول الكريم ﷺ.؟

أم نقصد به ذلك الشعر الوعظي الذي يهتم فيه منشئه بإسداء النصائح والتوجيهات، والترغيب في الجنة، والتحذير من النار؟

أم نقصد به ذلك الشعر الذي يهتم بمعالجة قضايا المسلمين في كل مكان؟

أما أننا نقصد به شيئاً أعم من ذلك وأشمل؟

والحقيقة التي يجب أن نعيها جميعاً أن مجالات الشعر الإسلامي التي يدور في فلكها، وينابيعه الثرة التي يمتح منها أوسع من ذلك بكثير، فهي ليست محدودة بحد، ولا محصاة بعدد.

ونحن في دراستنا نقصد بالشعر الإسلامي: ذلك الشعر الذي يتصل بالإسلام اتصال الفرع بالأصل والجدول بالينبوع، الشعر الذي يحمل فكرة إسلامية نيرة، أو عاطفة دينية سامية، وبهذا المفهوم للشعر الإسلامي يتضح لنا أن الشعر الإسلامي لا ينحصر في إطار الشعر الخلقي، ولا في إطار الحكم والنصائح التي يمكن أن تقال في أي عصر من العصور.

ولسنا نقصد بالإسلامية فيه أن يكون دينياً يعنى بالتسبيح والتحميد، والدعاء والاستغفار، ونحوها من ابتهال للمولى سبحانه وتعظيم له، وحديث عن عجائب مخلوقاته فحسب، فذلك شعر إسلامي، ولكنه ليس كل الشعر الإسلامي، بل بعض من كل، وجزء من جسم.

وهذا كلام حسن لكنه يخرج منه بنتيجة أخرى هي في قوله:

«فالشعر الإسلامي أوسع من ذلك بكثير، فهو يتناول كل قضايا الكون والحياة والإنسان حين تمزج بالعاطفة الإسلامية، أو تتشح بوشاح الفكر الإسلامي».

فهو هنا يعود فيحصر الشعر الإسلامي فيما يمكن أن نسميه أدب الدعوة، وهذا تعريف أخذه من بعض الذين لم يتضح مفهوم الأدب الإسلامي في أذهانهم، ذلك أن الأدب الإسلامي أوسع من هذا بكثير، وأدب الدعوة جزء منه وليس كله.

والعجيب أنه يقول في الهامش على القول السابق: «وأنا لا أرفض هذا المفهوم للفن الإسلامي، لكني لا آخذ به في دراستي للاتجاه الإسلامي في شعر السنوسي، وذلك لعدم تحققه بهذا المفهوم في نتاج شاعرنا» والذي يرفضه هو الذي أخذ به مع تغيير في صدر العبارة.

وفي ص ٢٧ يبدأ الفصل الأول: «النزعة الإسلامية في الأغراض الشعرية» وهمش عليه بقوله: «نريد بالنزعة الإسلامية في الأغراض

الشعرية: صدور المعاني من المضمون الإسلامي وأخذ الدلالة منه».

فهل يكفي هذا للتفريق بين مفهوم «الأدب الإسلامي» و«النزعة الإسلامية» وهل ما اشتمل على نزعة إسلامية مغاير للأدب الإسلامي؟ فإن كان الجواب «بلا» فالفصل خارج الموضوع، وإن كان الجواب «بنعم» فلابد من الإيضاح، وما أحسبه سيجد فرقاً بين هذا وذاك إلا بشيء من الافتعال الذي لا يعينه شيء من الحقيقة إلا عند الذين يعنون بالأدب الإسلامي أدب الدعوة وهو قول أشرنا إلى واقعه سلفاً.

وحديثه عن المدح عند السنوسي يجعله من الأدب الإسلامي، وهذا صحيح إلا أنه لا ينسجم مع عنوان الفصل.

وما يقال في حديثه عن المدح عند السنوسي يقال عن حديثه في الرثاء عنده، وكذلك حديثه عن الغزل وكذا الوصف.

وفي حديثه عن «الشعر الاجتماعي» قال: «هو من الأغراض الشعرية المستحدثة في شعرنا العربي المعاصر، وإن كانت له إرهاصات في شعرنا العربي القديم، إلا أنها لم تستطع النهوض به حتى يكون غرضاً مستقلاً له كينونته الخاصة به، وذلك لأن مجتمعنا الإسلامي - قديماً - لم تكن له قضايا اجتماعية ظاهرة تقلق الشعراء، كما هو الحال في عصرنا الحديث الذي ظهرت فيه العديد من المشكلات الاجتماعية.

وهذا قول غير صحيح لسببين أولهما: أن الشعراء قديماً عالجوا قضايا مجتمعهم وأقرب مثال لذلك ما تجده في شعر المعري.

والثاني: أن لكل مجتمع قضاياه، فنفيه وجود القضايا الاجتماعية عند المسلمين قديماً قول غير صحيح يبطله هو بنفسه، وذلك في قوله: «فقضايا عصرنا الحديث التي نعيشها تختلف عن القضايا المعيشة في عصورنا السابقة».

والاختلاف النسبي بين القديم والحديث في قضاياه الإجتماعية لايفضي إلى هذا

النفي الذي حكم به.

ومما يدل على عدم تمييزه بين النزعة، والاتجاه، والأدب الإسلامي، قوله نقلاً عن د. الهويمل على نحو يفيد التسليم: «وذلك لأن الاصلاح الاجتماعي مطلب إسلامي، وإسهام الشاعر في الإصلاح من خلال تصور إسلامي مقتضى لا محيد عنه».

وهذا من شواهد ما أسلفناه من إشارة إلى عنوان الفصل الأول، وما قلنا عن أول موضوع وهو المدح يقال عن جميع الموضوعات. ثم إن المؤلف في كل موضوع يعود إلى بداياته في التاريخ الأدبي عند العرب وكأنه مكلف بتقديم خلاصات لتاريخ الموضوعات في الأدب العربي، وهذا نوع من الاستطراد لو جاز في المؤلفات العادية لم يجز إطلاقاً في الرسائل العلمية.

ولو أنك جردت هذا الفصل من هذه الاستطرادات لوجدت صفحات كثيرة جداً هي من فضول القول.

والفصل الثاني: «موضوعات الشعر الإسلامي» هذا العنوان يخرج الفصل الأول من صلب الرسالة فإذا صح ذلك فكله استطراد مكانه التمهيد، والحكم في هذا سيتضح لنا في قراءة الموضوعات في هذا الفصل.

في هذا الفصل تحدث عن: الشعر المتصل بالعقيدة الإسلامية، والشعر المتصل بالإسلام ورسالته، واستلهام التاريخ الإسلامي، والشعر المتصل بالحضارة والتراث الإسلاميين، والشعر المتصل بالدعوة إلى الجهاد، والشعر المتصل بالدعوة إلى الوحدة العربية والوحدة الإسلامية، وهذا يصدق ما قلناه سلفاً، ثم إنه يدل على مفهوم الأدب الإسلامي وبخاصة الشعر وهذا يعني أن مفهوم الأدب الإسلامي لم يتضح في ذهن الباحث، ومصدر ذلك بعض المصادر التي اعتمد عليها.

أما الفصل الثالث: «معاني الشعر الإسلامي» ففيه ثلاثة مباحث: أولها «المعاني والأفكار» خلص منه بعد استطراد في صدره إلى «التجربة الشعرية والصدق الفني» حيث أضعف من أهمية التجربة التي لا تتجاوز عنده كونها مثيرة.

فأما كونها مثيرة فحقيقة، ولكنها تتجاوز ذلك إلى صبغها العمل الأدبي بروحها وبحقيقتها وواقعها ومنطلقاتها وما إلى ذلك مما يتصل بالتجربة.

وفي البحث الثالث: «الوحدة العضوية» وفي صدره قال: «تعد الوحدة العضوية من معالم التجديد في الشعر العربي الحديث، ويراد بها «وحدة الموضوع، ووحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع».

وهذا يعني أنه لم يدرك مفهوم الوحدة العضوية، والفرق بينها وبين الوحدة الموضوعية، وكذلك الوحدة الشعورية. فكل واحدة من هذه الوحدات لها مفهومها الذي يميزها من سواها.

ثم إن الدعوة إلى الوحدة العضوية لم تكن جديدة فقد دعا إليها نقاد العرب الأقدمون، ولكنها تختلف عما نادى به بعض المتأخرين الذين أخذوا بمفهومها عند الغربيين، وهو ما ورثوه عن اليونان والرومان.

وهذه الوحدة العضوية التي يدعو إليها الغربيون ومن تابعهم من العرب إنما يطلب تحققها في الشعر التمثيلي والملحمي والقصصي.

أما الشعر الغنائي فمستثنى حتى عند اليونانيين، والشعر العربي غنائي إلا ما كان من باب القصصي والتمثيلي والملحمي، والأول قليل عند الأقدمين، والثاني والثالث مما جد في هذا العصر، كما توسع العرب أيضاً في الشعر القصصي، فهل ما يطلبه الباحث عند السنوسي ما كان من هذه الأجناس الثلاثة؟ ذلك ما سنتبينه في حديثه عن الوحدة العضوية.

وقوله عن العقاد: «فالقصيدة كما يرى العقاد: «ينبغي أن تكون عملاً فنياً، يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة، كما يكمل التمثال بأعضائه، والصورة بأجزائها، واللحن الموسيقى بأنغامه، بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها، فالقصيدة الشعرية كالجسم الحي، يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته، ولا يغني عنه غيره في موضوعه، إلا كما تغني الأذن عن العين، أو القدم عن الكف أو القلب عن المعدة».

العقاد وقف هذا الموقف من شعر شوقي، ولكنه لم يستطع إخضاع شعره هو لما ينادي به زاعماً أنه ناقد يضع الضوابط، وليس بملزم بتطبيقها على فئة وإخضاعه لها وهذا قول فاسد:

يا أيها الرجل المعلم غيره..
هلا لنفسك كان ذا التعليم

على أن الباحث أورد ما يرد قول العقاد من قول بدوي طبانة. وعلى أي حال فالوحدة العضوية، وكذلك الوحدة الموضوعية والشعورية أيضاً كلها متوافرة في بعض ما استشهد به الباحث من شعر السنوسي.

وأما الفصل الرابع وهو الأخير فـ: «الشكل والصورة في الشعر الإسلامي» وإطلاق العنوان هكذا غير حسن، لكون بحثه مقيداً ومحصوراً في شعر السنوسي، وفيه مباحث ثلاثة هي : المعجم الشعري، والأسلوب، والصورة الفنية.

وأحاديثه في هذا الفصل لم يقفها على موضوع بحثه بل تحدث وكأنه يعالج جميع شعر السنوسي، ومعلوم أن في شعره -رحمه الله - ما لم يكن من باب الشعر الإسلامي.

ثم إنه في حديثه عن «الأسلوب» قال: «فئة تناصر اللفظ وبلاغته مقدمة إياه على المعاني، كأبي عثمان الجاحظ، وأبي هلال العسكري وغيرهما، ومن المحدثين الأستاذ مصطفى صادق الرافعي».

وهذه فرية قديمة ألصقت بالجاحظ، ثم سحبت على آخرين كالرافعي الذي ذكره صاحبنا.

وذلك أن الجاحظ لم يهون من أمر المعاني لا لكونه من أصحابها وحسب، بل ولأنه أفقه من أن يسقط أهمية المعاني، ولكنه يذكر حقيقة هي أن المعنى من حيث هو مدرك في أصله لدى جميع الناس العقلاء المدركين.

وفي الخاتمة قال: «وفي الغزل، وقفنا على اصطباغ قصائده فيه بالعفة التي كانت ثمرة من ثمار العقيدة الإسلامية».

فهل جميع غزله خاضع لهذا؟! أحسب هذا محل نظر.

ثم إنه في الخاتمة كرر شيئاً مما ذكره في المقدمة.

وهو في الخاتمة والمقدمة معاً يعبر بضمير الجمع، وهذا عنده أكثر من الكثير في المقدمة.

وهم لا يرتاحون إلى مثل هذا في الرسائل الجامعية، بل ولا إلى ضمير المتكلم الذي استعمله الباحث أيضاً في المقدمة.

ثم إنه ينقل الكلام بنصه وبهوامشه أيضاً من بعض الباحثين، ولا يشير إلى هذا إلا بما يفهم أنه له.ومثال ذلك ما نقله عن «محمد بن علي السنوسي حياته وشعره» للباحث محمد بن سليمان القسومي، وهي رسالة علمية ما تزال مخطوطة نقل عنها من ص ٢٠ إلى ص ٢٥ ولم يشر إليها إلا أربع مرات بطريقة تفيد أن النقل منها جزئي وهذا غير صحيح.